أيها المذنب بئس ما اخترت

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية

www.ktibat.com

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى؛ ابتدأ بالنَّعْماء.. وأعطى لغـير جـزاء.. والصَّـلاة والسَّـلام على النَّبي صاحب الحُجَّة الغَـرَّاء.. وعلى آله وأصـحابه الهُداة الأتقياء. **وبعد:**

أيها العاقــل! ما قولك في رجل مــرَّ في طريـــق؛ فأبصر أزهـــارًا ناضـــرة.. فوَّاحة الأريج.. وإلى جنبها شــوك عنيــد؛ فــأعرض عن الأزهــار.. ومــدَّ يــده إلى الشــوك؛ فما ردَّها إلاَّ حرارة وخَزه؟!!

أليس عجيبًا أمر هذا الرجل؟!

ذلك مثل المذنب الـذي أعـرض عن بـرد الطاعـــات ونضـــارها.. وأقبل على أوحـــال الذنوب ودنسها!

حقًا! بئسما اختار!

*** أيها المـــذنب! المعصـــية حظ الشيطان!**

يا من اخــــترت العصــــيان على طاعة الـــرحمن.. أما علمت أن المعصـــية حظ الشيطان؟!

كم يفرح الشيطان – أيها المسكين – إذا رآك على العصيان.. آبقًا من الرحمن!

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْـرَ وَيَـأْمُرُكُمْ

بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 268].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى، ثم قرأ هذه الآية: **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**، **وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا**، قال: يعني يأمركم بالطاعة والصدقة؛ لتنالوا مغفرته وفضله **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**؛ يعني: واسع الفضل، عليم بثواب من يتصدق».

فانظر - أيها المذنب - أنك إن ركبت الذنب أقدمت على أمر فيه طاعة للشيطان.. وإن أقدمت على الطاعة فإنما أنت في طاعة الرحمن.. فأيهما تختار؟! والعاقل من أحسن الخِيَرَة.

*** أيها المذنب! هل استفدت من عقلك؟!**

يا من خصَّك الله بالعقل والجنَان.. وجعلك من بني الإنسان.. هل استفدت من هذا العقل؟!

إن من أتْبَعَ نفسه هواها.. وأعطاها

مُناها.. فهو المعطِّل لعقله حقًا!
وأي شرف لعقلك – أيها المسـكين – إن لم تميز به بين الحسن والقبيح؟!
وأي فائـدة اسـتفدتها من عقلك وأنت تختار رضا الشيطان على رضا الرحمن؟!
بل أي فـرق بينك وبين البهـائم.. إن لم يدلك العقل إلى ما فيه صلاحك؟!
قـال ابن الجـوزي: «وبهـذا القـدر فُضِّـل الآدمي على البهائم؛ أعني ملكة الإرادة لأن البهـائم واقفة على طباعهـا، لا نظر لها إلى عاقبة ولا فكر في مـآل، فهي تتنـاول ما يـدعوها إليه الطبع من الغـذاء إذا حضـر، وتفعل ما تحتاج إليه من الـروث والبـول أي وقت اتفـق، والآدمي يمتنع من ذلك بقهر عقله لطبعه».
أيها المـذنب! أرأيت لو احتكمت إلى سـلطان العقـل؛ أكنت تختـار الـذنب على الطاعة؟!
أم أن سكرة الشهوة غلبت البصيرة؟!
ولكن هل يقر المذنبون بذلك؟!
إن من عـدَّ نفسه في العقلاء.. كيف يقر على نفسه بضد ذلك؟!
قـال ابن الجـوزي: «فالعاقل من حفظ

دينه ومروءته بــترك الحــرام، وحفظ قوته في الحلال؛ فأنفقها في طلب الفضـائل من علم أو عمــل، ولم يسع في إفنــاء عمــره وتشتيت قلبه في شيء لا تحسن عاقبته».

*** أيها المــــذنب! كيف تســــتبدل بشرف الطاعات ذل المعاصي؟!**

إن الطاعة منزلة شــــــــريفة.. ودرجة سـامية.. يسـمو إليها أولئك الـذين اختـاروا الشرف.. والرفعـة.. فـتراهم بها مغتبطين.. هانئين..

والمعصــــــية منزلة وضــــيعة.. ودرجة حقــيرة.. تهفو إليها قلــوب اختــارت دنيء الدرجات.. وسفساف الأمور!

قال وهيب بن الورد: «من أحب شهوات الدنيا؛ فليتهيأ للذل»!

وأمَّا أهل الطاعــات؛ فهم أعلى النـــاس قـدرًا.. وأرفعهم عـزةً وشـرفًا.. وتأمَّل في وصف الله تعالى لأوليائه بذلك..

قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُــــؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَـــافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: 8].

فقـــرن الله تعـــالى عـــزة أوليائه بعزته تعــالى وعــزة رســوله ﷺ.. وفي هــذا دليل

واضح على شرف وعلو هذه العزة! وأكْـرِمْ بــذلك من نســب! فــإن أهل المعاصي إذا افتخــروا بــالأهواء والانتســاب إلى مراضي الشـيطان.. فـإن أهل الطاعـات يفتخــرون بالطاعـــات والمكـــارم.. والانتســـاب إلى مراضي الــرحمن.. وكم بين الفــريقين من بَوْن شاسع!

وإن ما ينتظر الطائعين من الشرف يــوم القيامة أكثر من شرف الدنيا!

قال الله تعـالى: ﴿**فِي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَـهُ فِيهَا بِالْغُـــدُوِّ وَالْآصَـــالِ * رِجَـــالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلَا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْـرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَـاةِ يَخَـافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصَـارُ * لِيَجْـــزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَـــنَ مَا عَمِلُـــوا وَيَزِيـدَهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ وَاللَّهُ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [النور: 36-38].

أيها المذنب! فـاختر لنفسـك: إما شـرف الطاعات.. ثم الشرف في الدنيا والآخــرة.. وإمَّا ذل الـــذنوب... ثم الـــذل في الـــدنيا والآخرة؟!

*** أيها المـــــــــذنب! هل علمت أن**

أفضل العبادة ترك الحرام؟!

يا من اخــترت الــذنب على الطاعــة.. والراحة الكاذبة على الراحة الكبرى! أرأيت إن أعجزك الإكثـار من الطاعـات.. أما كـان يسعك ترك الحرام؟!

إن في حجز النفس عن الحــرام فضــيلة ظـاهرة.. ودرجة رفيعـة.. قـال عمر بن عبد العزيز: «إن أفضل العبـادة؛ أداء الفــرائض، واجتناب المحارم».

وقال محمد بن كعب القــرظي: «ما عُبد الله بشـــــيء قط أحب إليه من تـــــرك المعاصي»!

لذلك كان جهاد النفس على شهواتها من أرفع أنـــواع الجهـــاد.. والمنتصر فيه أظفر الناس فتحًا.. وخيرًا!

ويقابل المنتصر المنهــــزم في جهـــــاد نفســـه.. فإنه من أشد النـــاس هزيمـــة.. وكسرًا!

قـــال رســـول الله ﷺ: «**ألا أخـــبركم بــــالمؤمن؟ مَنْ أمِنَـــهُ النَّاسُ على أمــوالهم وأنفســهم، والمســلم مَنْ سَـــلِمَ النَّاسُ من لسَـــانه ويـــده، والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة**

اللـــه، والمهـــاجر منْ هَجَـرَ الخطايا والذنوب!» [رواه أحمد وغـيره/ السلسـلة الصحيحة: 549].

قـال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة: «فيـؤمر بجهادهـــا، كما يـــؤمر بجهـــاد من يـــأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحـوج؛ فـإن هـذا فـرض عين، وذاك فـرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمـال؛ فـإن هـذا الجهـاد حقيقة ذلك الجهـاد؛ فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد».

أيها المذنب! فأيهما تختار: النصـر.. أم الهزيمة؟!

وقد علمت المنتصر من المهـــــــــزوم.. وأنهما طريقـان.. فـاحرص أن تكـون ممن انتصر على النفس وشهواتها..

واعلم – أيها المســـكين – أن ركـــوب الـــذنب نـــزول عن درجة الصـــابرين.. وهم الذين وعدهم الله تعالى بالثواب العظيم!

عن أبي ســـليمان الـــداراني في قوله تعـــالى: ﴿**وَجَـــزَاهُمْ بِمَا صَـــبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا**﴾، قال: صبروا عن الشهوات».

وقال أبو سليمان الداراني أيضًا: «أفضل

الأعمال خلاف الهوى».

*** أيها المـذنب! لقد اخـترت ظلام الذنب على نور الطاعة!**

نعم.. إن العاصي اختـار أوكس نصـيب.. وأخسر صفقة!

فبينما أهل الطاعـات يتقلبـون في لـذاذة الطاعـــات.. تـــرى أهل الـــذنوب غـــادين ورائحين في ظلام المعاصي!

وبينما يقبس أهل الطاعـــات من أنـــوار الهُـدى.. تـرى أهل المعاصي يتخبطـون في دياجير الذنوب!

قـــــــال ابن القيم: «ولا تظن أن قوله تعـــالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْـــرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ مختص بيوم المعـاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهــؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثــة، وأي لـذة ونعيم في الـدنيا أطيب من بـرِّ القلب، وســلامة الصـــدر، ومعرفة الـــرب تعـــالى، ومحبتـــــه، والعمل على موافقتـــــه؟! وهل العيش في الحقيقة إلاَّ عيش القلب السليم»؟!

أيها المـذنب! إن للطاعـات لـذَّة يـذوقها

من اعتادهـا.. وقد عـرف الصـالحون هـذه اللـــذة.. فكـــانت أشـــهى عنـــدهم من كل مُشْتَهَى!

عن أحمد بن أبي الحـــــواري، قـــــال: «سمعت أبا سليمان الداراني يقــول: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره حتى يخـرج من الـــدنيا إلا على ما فاته من لـــذة طاعة الله عز وجل فيما مضى من عمــره، لكــان ينبغي له أن يُبْكِيَـــهُ ذلك حـــتى يخـــرج من الدنيا! فقلت: يا أبا سليمان، إنما يبكي على لـــذة ما مضى من وجد الإيمـــان. فقـــال: صدقت».

قـــال: «وســـمعته يقـــول: أهل الطاعة بليلهم ألذ من أهل اللهو بلهـــــــوهم، وربما اسـتقبلني الفـرح في جـوف الليـل، وربما رأيت القلب يضحك ضحكًا»!

أيها المـذنب! والطاعة أُنْس... وسـرور.. وراحة.. والذنب وَحْشَة.. وشفاء!

فهل يســـرك أن تختـــار الوَحْشَـــة على الأُنس.. والنَّصب على الراحة؟!

قـال بعض السـلف: «إن للحسـنة لنـورًا في القلب، وقـــوة في البـــدن، وضـــياء في

الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلـوب الخلـــق، وإن للســـيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصًـا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق»!

أيها المــذنب! أهل الطاعــات بطاعــاتهم آنس من الوالد بولده.. ومن البخيل بماله!

لما حضرت معاذاً بن جبل الوفاة؛ قال: «اخنق خنقــك، فوعزتك إني أحبــك، اللهم إني كنت أخافـك، وأنا اليـوم أرجـوك، اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحب البقاء في الدنيا لكــري الأنهــار، ولا غــراس الأشــجار، وإنما بمكابـــدة الســـاعات، وظمأ الهـــواجر، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِّكر»!

أيها المـــذنب! إذا تلـــذَّذ أهل الطاعـــات ببردها.. فإنَّ للذنوب مرارات.. وغصص!

وكم من مـــــــذنب لم يشـــــــعر بتلك المـــــــــرارات.. وغفلته عن ذلك أشد من الذنب! فإن العقوبـات المعنوية الـتي تـنزل على قلب المــذنب شــديدة الوطــأة على العصاة!

قــال ابن الجــوزي: «وربما رأى العاصي ســلامة بدنه ومالـــه؛ فظنَّ أن لا عقوبـــة، وغفلته عمَّا عــوقب به عقوبـــة، وقد قـــال

الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة».

أيها الغافل! ذلك هو نور الطاعات الذي يفوز به الطائعون.. وتلك هي ظلمة المعصية التي يعيشها العاصون.. ويكون ذلك في الدنيا والآخرة..

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 12، 13].

*** أيها المذنب! بئس العبد عبد همه هواه!**

أيها المختار هواه على طاعة الله تعالى.. بئسما اخترت!

ويا أيها المشغول بشهوته.. بئس العبد

عبد همه هواه!

من الـــذي يرضى أن يســـتبدل بعبودية مولاه تبارك وتعالى عبودية الشهوات؟!

حقًـــا! إن المشـــغول بشـــهواته بئست البضاعة بضاعته!

قــال النــبي ﷺ: **«تَعِسَ عبــدُ الــدينار، وعبــدُ الــدرهم، وعبــدُ الخَميصَــة، إن أُعْطيَ رَضِــيَ، وإنْ لم يُعْـطَ سـخط، تعسَ وانتكس، وإذا شـــــــيك فلا انتقَشَ!...»** [رواه البخاري].

قـــال مالك بن دينـــار: «بئس عبد همه هواه وبطنه»!

وقال بعض السلف: «كل شــيء يشـغلك عن الله عـــزَّ وجل من مـــال وولـــد؛ فهو مشؤوم عليك».

فيا من تقطَّعَتْ به السُّــبل.. وتفـرَّقت به مطالب النفس؛ إن السـعيد من جعل طاعة الله شغله.. ومن كـان كـذلك كفـاه الله همَّ دنياه..

قــال رســول الله ﷺ: «من جعل الهمــوم همًّا واحدًا؛ هم المعاد؛ كفـاه الله همَّ دنيـاه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبـال الله في أي أوديته هلـك!». [رواه ابن

ماجه/ صحيح الترغيب للألباني: 3171].

أيها المذنب! إن الواقف عند شهوته لا تزال النفس تدعوه إلى المزيد.. حتى يصبح عبدًا لها!

فَلُـذْ إلى ظـل الطاعـات.. تجـد أهنـأ ظل!

خير ما اجْتَنَّ به المرءُ التُّقَى
فاتَّخذْهَا عُدَّةً دونَ العُدَدْ
وأرى الشَّهْوَةَ مفتاحَ الرَّدى
فاجْتَنِبْهَا وانْأَ عنها وابْتَعِدْ

*** أيها الغافـــــل! أتـــــدري علامة المطيع والعاصي؟!**

يا من اخترت طريق الذنوب.. هل وقفت على علامات الطريق؟!

فكم من مــــــذنب أعمت بصـــــــيرته المعاصي.. فهو لا يدري ما يأتي وما يذر!

فإليك – أيها الغافل – علامـــــات طريق الناجين.. وطريق الهالكين..

يقــال: «للمخــادع نفسه ثلاث علامــات: أحــدها: أن يبــادر إلى الشــهوات، ويــأمن الزلل، والثاني: يسوف التوبة بطول الأمـل، والثالث: يرجو الآخرة بغير عمل»!

وقـــال بعض الحكمـــاء: «علامة الـــذي

استقام أن يكون مثله كمثل الجبل؛ لأن الجبل له أربع علامات: أحدها: أنه لا يذيبه الحر، والثاني: لا يجمده البرد، والثالث: لا تحركه الريح، والرابع: لا يذهبه السيل، فكذا المستقيم له أربع علامات: أحدها: إذا أحسن إليه إنسان لا يحمله إحسانه على أن يميل إليه بغير حق، والثاني: إذا أساء إليه إنسان لا يحمله ذلك على أن يقول بغير حق، والثالث: أن هوى نفسه لا يحوله عن أمر الله تعالى، والرابع: أن حطام الدنيا لا يشغله عن طاعة الله عزَّ وجلَّ».

أيها المذنب! إن طريق الذنوب طريق مظلم.. لا يسلكه إلاَّ من اختار لنفسه الأدنى.. ورغب بها عن سبل الهُدى!

فاسع– أيها المسكين- إلى خلاص نفسك قبل حلول الآفات.. ونزول مفرِّق الجماعات..

وعَمِّرْ أيامك بالطاعات.. فإن زهرة أيامك ما شغلتها بطاعة الله تعالى.. قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يُعمَّر في الإسلام لتكبيره، وتحميده، وتسبيحه، وتهليله**» [رواه أحمد/ صحيح الجامع:

5371].

وقال رسول الله أيضًا: **«خير النـاس من طال عمره، وحسن عمله».** [رواه الترمذي/ صحيح الترغيب: 3364].

أيها المـــذنب! أيقظ عين البصـــيرة.. وســتبدو لك الطاعــات في أزهى حُلَلهــا.. وأحسن الاختيــار.. وقــارن بين الأمــرين: الطاعــة، والمعصــية.. أيهما أكمل أمــرًا.. وأحمد عاقبةً؟!

ولا يخـــدعنك شـــاهد الشـــهوات عن الآفــات.. واحـــرص على فعل الطاعـــات كحرصك على فعل الشهوات تُهْدَى إن شاء الله.. ويستقيم أمرك..

والحمد لله تعالى أبدًا.. والصَّلاة والسَّلام على النَّبي والآل والأصحاب..